

# لغة البهائم . . . !

للاستاذ عماد الدين عبد الحميد

المحقق المتضاني بالآثار

كانت العربية البخارية - كما يسمونها - تسير بنا ، فلا تقطع الأرض قطعاً أو تنهبها نهباً - كما يقولون - وإنما كانت كأنما تمن في أن تسعرا بالمال ، تفسير المويبي ، وتقف عند كل محطة في الطريق إلى ضاحية ما من ضواحي القاهرة ، ضاحية كتب عنها أن تظل حالماً دائماً مثار الشكوى من أهلها . . . والذي يقوله الناس إن حالماً تبقى كذلك ، لأن في بقائها كذلك راحة واطمئناناً وسبباً من أسباب اليسار لضاحية أخرى !

كانت العربية البخارية تسير بنا هكذا ، ويزيد في ملنا اضطرارنا اضطرارنا إلى أن نتفص عن وجوهنا ، وعن ملابسنا ، وعن مقاعدنا ، حبيبات الفحم التي توزعها الآلة البخارية عدلاً من مقدمة العربية على جميع الركاب في الدرجتين الأولى والثانية على السواء . وحبيبات رمال الطريق الصحراوي التي توزعها عدلاً كذلك نوافذ العربية البخارية التي لم يقدر لها - أو لنا - منذ عرفناها ، أن تكون عند الحاجة محكمة الإغلاق !

وكان يجلس أمامي أديب معروف من كتاب الشباب وشعراتهم وهو أحد محرري هذه المجلة ، يجادل أن يخرجنا من أسر الملل بقصداته الطريفة للعربة التي تحملنا على الرعم ما ، ولو استطعنا نحن أن نحمّلها لنعجل بالوصول إلى حيث كنا نرغب في أن نصل لما ترددنا جميعاً !

وكنا نجد في نقدرات صديق الأديب عزاء - إلى حد ما - في أوقاتنا الضائعة ، وراحتنا الضائعة ، وملابسنا الصائغة ، حتى إذا ما كانت الربة البخارية بنا عند محطة ما في الطريق ، أخرجنا عن الملل وأثار انتباهها صوت قوي صارخ من شاب كان يجلس قريباً منا ، يرتدى رداء رجال الجيش ، وتميزه "نجمة" فوق كتفه ، فتحدث بأنه ضابط شاب في رتبة الملازم الثاني ، عرفت فيما بعد بأنه من ضباط جيشنا ، الذين انضموا تحت لواء العسكرية من بين الموظفين ، فدر بهم على الأعمال العسكرية شهوراً ، ولقنوم من الثقافة العسكرية دروساً ، ثم منحوا حاملي شهادات "البكالوريا" منهم "نجمة" . . . ومنحوا حاملي الشهادات العالية "نجمتين" .

ارتفع صوت هذا الضابط الصغير صارخا بعبارات لم أكن أريد أن أصدق أنها تصدر عن إنسان وصلت به ثقافته إلى أن صار ضابطا في الجيش... وارتفع هذا الصوت صارخا في إنسان مبزته بعد لحظة ، فإذا هو جندي من جنود حراسة المحطة ، الخاضعين لإشراف وملاحظة حضرة الضابط المحترم !

كان طبيعيا أن نميز بعض العبارات الصادرة عن حنجرة الضابط ، أو كل تلك العبارات ، فنذكر منها قوله : " أنت يا لوح يا ابن اللوح " و " أنت يا كلب يا ابن الكلب " و " أنت يا كذا يا ابن كيت " وغيرها من العبارات التي يلزمني عند ذكرها أن أردفها في حديثي بكلمة " الأبعد " ، لخروجها عن أصول اللياقة في علاقة الإنسان بغيره من بني آدم . . . وعن أصول الكرامة اللازم توافرها وشعور الإنسان بها نحو نفسه كأنسان !

كان طبيعيا أن نميز هذه العبارات ، وكان محتوما أن يشظا أمرها عما كنا فيه من حيث صديق الأديب . فنتبه جميعا إلى قصة هذه العبارات .

وعندها علمنا أن حضرة الضابط لاحظ على الجندي ارتكابه مخالفة ما ، لا أريد أن أخالف الضابط في أنها مخالفة خطيرة ، وأنها تستوجب انبؤم الشديد والتأنيب الكبير والعقاب الصارم والجزاء الرادع ، حتى لا تتكرر من الجندي هي أو مثيلتها من المخالفات . ولكنني خالفته من الوهلة الأولى في أنها تسمح هي أو غيرها من المخالفات بأن يخرج حضرة الضابط عن شعوره أو يفلت منه ميزان ضبط عواطفه ، فيفوه بعبارات منحطة ، وألفاظ من السباب عريقة الصلة بالصفات الوضيعة ، التي أربا بمثل حضرة الضابط أن يقبل نسبتها إليه !

خالفت حضرة الضابط في هذا من الوهلة الأولى ، وكنت أود أن أعلن به بخلفتي صراحة ، لولا أن الأخلاق والكرامة والشعور البشري لم تنفد من صارح الضابط بمثل ما كنت أريد أن أصارحه به .

فكنت - كما كان الناس جميعا - في شغل عن مضايقات العربية البخارية بمديث جديد بين الضابط وبعض الراكين ، حديث هو درس قيم لا أشك في أنه سيبقى في ذهن هذا الضابط ما بقى . . . ويا جبذا لو كان قد تسنى أن يلقى هذا الدرس عن جميع الضباط وعلى الناس أجمعين ، لا لأن جميع الضباط والناس يفعلون مثل ما فعل هذا الضابط ، ولكن لأن في الناس وى الضباط كثيرين ممن يفعلون .

حاول الضابط كثيرا أن يقنع الناس بأنه معذور فيما فعل ، وأن هذه وحدها لغة التفاهر .

وربما كان هذا لأنهم يعتقدون بحق أن التعاليم لا يلغى بالجهل ، وأن الأخلاق لا تربي بسوء الأخلاق ، وأن الظلم لا تطبق بالفوضى . . . .

وربما كان هذا لأنهم يعتقدون بحق أن هذا الجندى إنسان كالضابط سواء بسواء ، وأنه أولا الرداء العام ذو النجمة ... والرداء الخشن بغير النجمة ، لما استطاع الضابط أن يفعل مثل ما فعل لأى سبب من الأسباب .

ولما سئل حضرة الضابط : لماذا لا ينزل ويتأخر للقطار التالى ، حتى ينهى حسابيه الثانوى مع الجندى ، فى غير صفحة أو تظاهر بسلطان الرياسة بين الناس ، احتج بأن الحادث وقع فى أثناء راحته من العمل ، وليس مسئولاً أن يعمل فى أثناء راحته !

وقد سمعت حضرة الضابط يحاول إقناع الناس بأنه فعل خيرا ، إذ الجندى مسكين والضابط رحيم ... وسيكتفى حضرته بهذا السبب فلا ينزل بالجندى جزاء شديدا ... وهو يعتقد أنه بهذا يصلح الجندى وينزل به رحمته !... وكنت أرجو لو قال له محدثه ، إنه بهذا لا يصلحه ولا يرحمه ، لكفه فسدده ويشتد فى القسوة عليه .

فهو يمت فيه الشعور بالكرامة حين يعوّده قبول الشنائم ، ويقتل فيه الخشية من الجزاء حين يعلم أن عاقبة الاحتمال شىء من السباب ، وهو يعرضه مستقبلا لأن يماود الإهمال والخالفة فيقع يوما ما فى شر كبير .

والذى أراه أن الضابط صادق فى أنه لن ينزل بالجندى بعد هذا جزاء شديدا ، ولكنى لا أستطيع أن أعلل هذا بالرحمة ، فمثل الذى سمعت منه ما ذكرت لا أتصور كيف يكون فى قلبه لون من ألوان الرحمة تجاه مثل ذلك الجندى .

والذى كنت أرغب أن ينبه هذا الضابط أخيرا إليه — ولعله يعلمه — هو أن بين جنود القوة ، التى هو ضابط فيها ، كثيرين من الحاصلين على شهادة " البكالوريا " التى سمحت بمنحه التهمة التى تزين كتفه ، وتزيد رداءه أهبة ... ، ولا يفرق بينه وبين هؤلاء إلا أنهم حين جاء دورهم فى الخدمة العسكرية ، كان هو موظفا ولم يكونوا هم من الموظفين ، ففقد هذه الخدمة فكان ضابطا ، وطلبوا هم — وعجزوا عن دفع جنيناهات قيمة البديل العسكرى — فكانوا من الجنود !

كنت أرغب فى أن ينبه هذا الضابط إلى هذا ، وكنت سأقوله ، لولا أن الدرس الذى كان يلقيه فى رى عليه لم ينه قبل أن نفترق كل إلى سبيله . فأشار على صديق

أفضل ، حتى أن يكون فيها شيء من التوجيه الذي يجب أن يوجه إليه الناس أجمعين ، حتى يفهموا أن المسئولين اليوم عن تأخر عقليات جمهور الشعب ، الذي يسمونه ”البهائم“ ... ؛ ليسوا هم ”البهائم“ ... ؛ وإنما المسئولون حقاً هم المثقفون .

هم الذين يحتلون مراكز الرياسة والقيادة في كل عمل صغير أو كبير . هم الذين أعطتهم الأيام نصيباً من السلطان — عظم هذا النصيب أو حقره — فلم يرضعوا غيرهم إلى حيث هم ، ولكنهم هبطوا بأنفسهم ، وبمستقبل الأجيال ، إلى الحضيض ... بدعوى أن هذه وحدها طريق تعليم ”البهائم“ ... ، ولغة التفاهم مع غيرهم من الذين حرّمهم الدهر — أو الناس — نصيبهم الحلال ، من الجاه والعلم والسلطان ...

كم نحن في حاجة إلى أن نزن أقدارنا بميزان صحيح ، وأن نحفظ بين الناس ما لنا من مقدار ... !

عماد الدين عبد الحميد

### من أخلاق المسيح عليه السلام

يرى أن المسيح عليه السلام كان يجلس مع بعض الحواريين فترجم خنزير ، فأشار إليه بيده قائلاً : ” اذهب يا هذا “ ! وطن بعض تلاميذه أنه يجهل اسمه فيكتفى بالاشارة إليه . فقال : ”إن اسمه خنزير“ فقال عيسى عليه السلام : ”إنني أعرف اسمه ولكني أكره التطرق به خشية أن يعتاده لساني ، فأخاطب به — في حالة غضب — بعض بني الانسان“ !